مجلة
دراسات إنسانية

تصدرعن جامعة مستغانم
ISSN: 2437-119X

العـدد: 04 (2018)، ص ص29- 43

نهاني كريبع والحوار مع الآخر من خلال مفهوم الإنسان الشامل

بوعروري اليزيد*

كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة سطيف 2 (الجزائر).

تاريخ الاستلام: 2017/12/19 تاريخ النشر: 2018/12/28

الملخص:

إن الحوار من القضايا الرئيسية التي تستأثر باهتمام الإنسان المعاصر، فما دام أنه لم يعد بوسع أحد الوصول إلى حقائق نهائية وقارة، يجب الاستعاضة عن ذلك باللجوء إلى حقائق متوافق عليها، يؤدي الحوار دورا مركزيا في بلورتها إن لم يكن السبيل الأخير الذي يمنع التطاحن الذي كلّف الإنسانية كثيرا، فبقدر ما يصل المتحاورون إلى الاتفاق يمكن للحوارات عندئذ أن تتواصل وتقترب من الحقيقة، إذ يتجاوز الحوار الحقيقي الذات، فالحقيقة لا يمكن للأنا أو الآخر امتلاكها نهائيا بل تبقى مشتركة بين المتحاورين، وهو ما يجعل للحوار فاعلية كبرى تمكّن كل متحاور من أن يصل إلى رؤية الحقيقة من موقعه الخاص.

الكلمات المفتاحية: الإنسان؛ الحوار؛ الآخر؛ نهاني كريبع.

Abstract:

Dialogue is one of the main issues that capture the attention of contemporary man. As long as no one can reach final and stable facts, this must be replaced by resorting to agreed upon facts. Dialogue plays a central role in crystallizing them, if not the last way that prevents the quarrels that cost Humanity is very much, as long as the interlocutors reach agreement, the dialogues can then continue and approach the truth, as the true dialogue transcends the self, the truth cannot be possessed by the ego or the other at all, but rather remains shared between the interlocutors, which makes the dialogue a great effectiveness that enables each interlocutor to reach To see the truth from his own site.

Keywords: Human; Dialogue; The Other; Nabhani Kriba

* **بوعروري اليزيد**، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة سطيف 2 (الجزائر).
lyazidbouarouri@yahoo.com

مقدمة:

لا جدال بأن الحوار هو من القضايا الرئيسية التي تستأثر باهتمام الإنسان المعاصر، فما دام أنه لم يعد بوسع أحد الوصول إلى حقائق نهائية وقارة، يجب الاستعاضة عن ذلك باللجوء إلى حقائق متوافق عليها، يؤدي الحوار دورا مركزيا في بلورتها إن لم يكن السبيل الأخير الذي يمنع التطاحن الذي كلّف الإنسانية كثيرا، فبقدر ما يصل المتحاورون إلى الاتفاق يمكن للحوارات عندئذ أن تتواصل وتقترب من الحقيقة، إذ يتجاوز الحوار الحقيقي الذات، فالحقيقة لا يمكن للأنا أو الآخر امتلاكها نهائيا بل تبقى مشتركة بين المتحاورين، وهو ما يجعل للحوار فاعلية كبرى تمكّن كل متحاور من أن يصل إلى رؤية الحقيقة من موقعه الخاص.

وهذا الحوار قاعدته الأساسية تنطلق من مفهوم الإنسان الشامل كمصطلح يتجاوز الذكر والأنثى، اللغة والدين والحضارة، بل هو الإنسان العالمي إن صحّ هذا التأويل.

والمقال الذي بين أيدينا يحاول أن يجيب عن المساءلات الأساسية التالية:

ما هو الحقل المعرفي الذي يتجلّى فيه الإنسان الشامل؟ ولماذا ذاك الحقل بالذات؟ وهل الإنسان الشامل هو وليد اللحظة أم هو رهن تطورات تاريخية وتقلبات ثقافية؟ وما هو المنهج المثالي الذي يتأسّس عليه الحوار؟ وألا يتعارض مفهوم الإنسان الشامل مع التسليم باختلاف المجتمعات وتعدّدها؟

1. مفهوم الحوار:

الحوار في اللغة العربية من حاوَرَهُ، مُحاوَرَة وحِوارًا يعني جاوبه وجادله (مجمع اللغة العربية، 1980، ص 177).

وفي اللغة الفرنسية Dialogue مشتقة من اليونانية dia وتعني من الواحد إلى الآخر، وتعني كذلك logos لوغوس أي الخطاب، وتعني كذلك أدب حواري، محادثة...وهي طريقة

للخطاب تسمح لشخصين متحاورين بأن يتدرجوا في مساءلات فلسفية (Michel, B., 2005, p. 285).

ومن التعريفين نخلص إلى أن الحوار يدل عموما على تناوب الكلام بين شخصين أو أكثر حول موضوع يفترض فيه الأخذ والردّ للوصول إلى غاية.

وفي مجال الأدب، فالحوار عنصر أساسي من عناصر البناء المسرحي، وهو العنصر الأدبي الوحيد في النوع التمثيلي، وما عداه من عناصر الإخراج والتمثيل والديكور وسواها فهي خارجة عن مهمة المؤلف ونطاق إبداعه، وذلك لأن ما تمتاز به المسرحية عن القصة كونها مسكوبة في حوار يجري بين شخوصها من البداية إلى النهاية.

والحوار هو أيضا أحد عناصر الأسلوب القصصي لكنه ليس العنصر الأدبي الوحيد كما في المسرحية، يعتمده القاصّ في جملة ما يعتمده من تقنيات التعبير كسرا لرتابة السرد وإضفاء حيوية على الحادثة وأبطالها وإيهام القارئ بواقعية الحدث وحركية الأشخاص.

والشرط في الحوار الأدبي هو أن يكون مطواعا، ومتناسبا مع شخصية كل محاور ومع الظروف المحيطة والموضوع المطروح، وكثيرة هي المؤلفات العالمية والعربية التي اعتمدت الحوار نسجاً أسلوبيا خاصا بالإضافة إلى اعتماده في الآثار المسرحية والقصصية (إميل وميشال، 1987، ص 587-588).

والحوار المقصود في موضوعنا هو دخول القارئ في هذا الحوار مع الشخصيات، ومع المبدع في الأعمال الأدبية والتفاعل معهم مهما اختلفوا عنا في ثقافتهم ومستواهم الاقتصادي والاجتماعي، ومعتقداتهم، وزمانهم التاريخي.

2. مفهوم الإنسان الشامل:

قبل تحديد مفهوم الإنسان الشامل يستعرض نبهاني المفهوم العامي والمفهوم النتشوي (نسبة إلى الفيلسوف الألماني نتشه) ثم ينتقدمهما ويقيم بدلهما مفهومه للإنسان.

أ - الإنسان بالمعنى العامي: هو موجود بمنطقة وعينا، ملازم لفرديتنا، ومن تجلياته الإشفاق على الآخرين، والخضوع لغريزة البحث عن المنفعة والأمن، وهذا المعنى كما يبدو أناني وجماعي إلى درجة أنه يمتلك أسس فينا كأحياء أو داخل المجتمع، وهو يقيدنا ويعتقلنا في دائرة الغرائز (Nabhani, K., 1989, p. 16).

ب - المفهوم النتشوي للإنسان يقوم على نقد الإنسان بالمعنى العامي، ويقترح ما يسميه بالإنسان الأعلى الذي يظهر على مسرح الأحداث وهو مطهّر من الأساطير، وبقيم نسبية، حرّ ومتخلّص من الله ليصبح هو نفسه الله في سماء ميتافيزيقية، هذا الإنسان الأعلى والقيم الجديدة التي يجرّها وراءه لا يعطي فقط إنتاجا تأليفيا غير واقعي ولكن يمنح له إمكانية أن يفرض نفسه، ويزدري القيم الحقيقية للإنسان. صحيح أن نتشه هو نفسه عبقري أصيل عكس بدرجة ما الإنسان في تعابير روحه الممزقة، وحتى شخصياته (زرادشت مثلا) حققت النهوض من الخمول، وتجاوزت الشكلانية والدغمائية، وأعادت إدماج ذواتها، ولكنه أفلس على الصعيد الإنساني عندما أراد أن يقيم أخلاق مثالية تقطع مع الإنسانية، فأن تكون عظيما هو أن تتوافق مع الآخرين وتدخل في تنافذ روحي مشترك.

ت - الإنسان الحقيقي: هو الفرد الذي يسعى للتخلّص من أخطائه، ومن الأنانية، الزهد في المتع الجسدية، والابتعاد عن المظاهر وكل ما هو شاذّ، غير خاضع لمجتمعه وقيمه الباطلة عن طريق تطهير حقيقي لوعيه، خبرته وثقافته، ويكشف عن إمكانياته وطموحاته. وهذا الإنسان كل منا دون استثناء يملكه في ذاته. هذا الإنسان يظهر في الأدب، لأنه أكثر مباشرة إذ يضع الفرد على تماس مع المبدع، يسمح باكتساب الوعي بالذات بعد اكتساب الوعي بالآخرين، هو صديق النوع الإنساني ويعرف كيف يقيم الرابطة العقلية الأكثر سعادة مع الآخرين، والحقيقة التي يكتشفها في الآخرين يظهرها عن طريق الفنّ أو الأخلاق هو صدى

صادق للإنسان الذي ينام في داخله. هذه الحقيقة المشتركة عند الجميع تسمح كذلك للفرد بأن يتأثر عند تماسه بالناس ويظهر إنسانيته العميقة، ويعترف بدور اللغة كعنصر محرّك يوقظ بالصوت والصورة الفعالية الكامنة فينا (Nabhani, K., 1989, p. 17-18).

3. تجليات الإنسان الشامل والحوار الأدبي:

يعتقد نبهاني كريبع - كما أشرنا في الأسطر السابقة- أن الإنسان الشامل هو ذاك الذي يحمله كل الناس في ذواتهم، يفكّر بطريقة منتظمة وخالصة، متحرّر من الحادثات، الزمان والمكان، ومن كل الإكراهات الاجتماعية، السياسية والروحية، وهو ما به يشعر وما يميل إليه.

وهذا الإنسان يتجلّى بطريقة موضوعية - وهو يعتقد بوجود موضوعية في الأعمال الأدبية لأنها تعبر بصدق عن واقع الإنسان - في الأعمال الفنية والأدبية، ففيها تنكشف الحياة الكثيفة للشخصيات وأفعالها في بيئتها، ورغم أنه في كل تخصص فني أو أدبي هناك معايير تسمح بموازنة الإنسان حسب أصالته: الشعر، الموسيقى، الرسم...ولكننا نستطيع أن نتخذ معيارا واحدا لكل الأنواع الفنية والأدبية، وهذا المعيار الأساسي هو الفرد الذي ينبثق منه الإنسان.

ولكن لماذا الفن والأدب بالذات هما اللذان يصوران الإنسان بصدق ووضوح؟(الكوني وإدريس، 2003، ص 89- 90)

يجيب نبهاني بأن الأديب يضع الناس على اختلافهم في مجال واحد، يجعلهم يلتقون ويتطابقون عند هذا الإنسان الشامل الذي يخلقه المبدع في عمله الفني أو الأدبي، ويصبح بيئة مشروعة حيث تلتقي النفوس في حوار مفعم، وتتوسع مشاركتها وليس هناك أي فرع معرفي يستطيع أن يفعل ذلك. هذا الإنسان إذن يقبع في قلب المبدع الذي يعبّر عنه وليس في داخل الأشياء أو في بعض الحقائق الميتافيزيقية، من هنا يكون الموهوب أحسن

تعبيرا عن الإنسان الشامل من العامي ولكل موهوب طريقته في محاورتنا (Nabhani, K., 1989, p. 22).

وقد يتساءل القارئ عن الانتماء أثناء قراءتنا للأعمال الأدبية كيف نقرأ أو بالأحرى نحاور أديب وشخصياته من عصور سحيقة في القدم، وكيف ذلك ونحن ربما في بيئة وهو في بيئة أخرى مخالفة تماما؟

يعتقد نبهاني أن الفن يعبّر بطريقة نموذجية عن الإنسان، فالفنانون ليسوا من زمن محدّد أو بلد محدّد ولكنهم ينتمون إلى كل الأوقات وإلى كل البلدان، وطنهم ليس بالضرورة ذلك الذي ولدوا فيه، ولكن يمكن أن يكون ذلك حيث يريدون أن يعيشوا. ووراء أسيجة الأجناس، المعتقدات، الحضارات واللغات هناك الفنانون العباقرة الذين يعبرون عن عمق مشترك إنساني وشامل، يلتقون في الذروات العالية وفي الأعماق، فالفنان المبدع يرى الأشياء على صعيد الإنسانية، ومثلما يعبّر عن كل ما يشعر به الناس بوعي أو دون وعي في أنفسهم، يحرّك كذلك مشاعرهم(Nabhani, K., 1989, p. 38).

وفي هذا المستوى كل الثقافات تكمل بعضها البعض ويحصل التقارب لأنها تعبر عن نفس العواطف، نفس الإلهامات ونفس القلق، خذ مثلا هومير، فرجيل، دانتي، شكسبير، جوته، دوستويفسكي... إنهم يمارسون تأثيرا على كل الناس مهما كانت المناخات التي يعيشون فيها.

ولكن كيف نمارس هذا الحوار المشترك الذي يتخطّى الزمان والمكان والعقائد والأجناس في جنس أدبي كالشعر مثلا أو المسرح الهزلي؟

لنأخذ الشعر كمثال للنظر إليه من وجهة نظر إنسانية، فهذا الإنسان يصبح معيارا شعريا حقيقيا حسب كثافته ونقاءه، فاللغة الشعرية المثلى وسيلة أمينة وشفافة تدخلنا في عالم الشاعر، إذ يؤثر فينا بحساسيته، يتواصل معنا بدون توقف، يحملنا معه، يربطنا مع حياة شخصياته، وبهذا يربط الكاتب حياته بحياتنا، ويعطي معنى في العمل الأدبي للشاعر

الذي لا يتوقف صداه فينا، ومثل هذه اللغة وما تحمله من مشاعر وما تبسطه من قنوات للحوار مليئة بالمعاني، خفيفة كالهواء، سائلة كالماء، عميقة كالمحيط ومضيئة مثل الشمس.

وعلى صعيد المسرح الهزلي نلتقي بـ"موليير" فهو يعبّر عن الإنسان بطريقة أصيلة، وأسلوبه يفرز جوهره الفردي، ملهاته تعبير غني لا يقارن مع كتاب آخرين في عصره إن لم نقل في كل العصور، وهو يظهر بأنه أكثر إنسانية في تحليله للذات، وفي شخصياته وهي معروضة بشكل أفضل، الحياة طافحة بالتعابير، وتناغم الكل ميزة أعماله الأدبية من ملهاة الآداب إلى الملهاة الفلسفية، وهو يحافظ على التماس معنا، ويشاركنا بالقلق الأخلاقي الذي يجسّده، الكلّ متحقّق بأسلوب بسيط، مجازي، حيّ، فموليير باسم طبيعة إنسانية سليمة وكلية يضعنا في حالة استنفار ضد الانحرافات(Nabhani, K., 1989, p. 19).

إذن التجلّي والحوار الحقيقيين لا يكونان إلاّ في الأعمال الأدبية لأن هذه الأعمال تحمل في طياتها اللغة الأعمق في الإنسان، والقارئ للنص الشعري أو المسرحي لا ينفكّ يشارك أفكار ومشاعر وسلوكات الشخصيات مهما اختلف عنها ثقافيا وتاريخيا لأن العمق الإنساني واحد.

4. القراءة- الحوار للإنسان الشامل عبر التاريخ:

يذهب نبهاني كريبع إلى أن لكل حضارة إنسانها الذي ترك بصمته في التاريخ، والذي لايمكن إزاحته، وإنكار مساهمته: إنسان الصين، إنسان الهند، الإنسان المصري القديم، إنسان الكلدانيين، الإنسان الغربي والإنسان المسلم، والنموذجان القريبان إلينا تاريخيا هما الإنسان الغربي والإنسان المسلم، ففي البداية كان الإنسان التوراتي الذي خرج من غطاء الحضارات القديمة، وأبرز إلى حدٍّ ما تصور للإنسان ولد مع الأنبياء العبرانيين، وكان هدفه التهذيب، وإخضاع حيوانيته للأوامر المقدّسة، ونموذجه كان أبراهام، يعقوب، جوزيف (يوسف)، موسى، دفيد، والصبغة الوجدانية الإنسانية أزهرت مع الأنبياء الأربعة: إسحاق، أزيشيل، جيريمي ودانيال، فهذا النموذج للإنسان التوراتي وحده كاف لتغذية روح

الإنسانية بأسرها، ومن هذا الإنسان التوراتي البسيط على الصعيد المادي، والغني روحيا، برز الإنسان اليهودي، إنسان المسيحية وإنسان الإسلام. هذا الأخير الذي ظهر مع الوثنية العربية، ثم مع النبي محمد (ص) الذي طبع مفهوم الإنسان دون أن ننسى تأثره بالحضارات الأخرى، ولكن الإسلام هو الذي هذّب الإنسان أخلاقيا وترك فيه بصمته النهائية.

أما الإنسان الغربي الذي كان ظهوره في خطّ مستقيم بداية من الوثنية الأوروبية، والتي عرفت شيئا من التهذيب بمجيء الوثنية الحضرية في اليونان وروما، ومفهوم الإنسان-المواطن الذي جسّده الإغريق متأثرين بالحضارات الشرقية، ولكنهم تحرّروا وقدّموا الأفضل لتطور عقل الإنسان ووضعوا قواعد الحضارة الحديثة التي ساهم فيها الإسلام. والحال هذه فإن الإنسان الغربي تمثّل تأثير المسيحية الروحي والذي فتح له آفاقا ميتافيزيقية واسعة(Nabhani, K., 1989, p. 23).

نستنتج أن نبهاني لم يقم بهذا الاستعراض التاريخي للإنسان إلاّ ليؤكّد على الفكرة القائلة بأن الإنسان واحد، وإنما خضع لتوجهات وتأثيرات تمليها الظروف والعوامل التي تحيط به، وهي التي تصنع النموذج، وهذا لا يمكن اتخاذه أبدا ذريعة للتفريق بين البشر بالنظر إلى أديانهم وأعراقهم لأن الإنسان في النهاية هو واحد وهو ضحية ظروفه، وعندما نقرأ أو نحاور الإنسان في التاريخ فكأنما نحاور أنفسنا في لحظة تاريخية ما أو ظروف معينة.

5. التجسيد المنهجي للحوار:

يؤكّد نبهاني كربيع أن الحوار قبل أن يكون في أطر ثقافية وقانونية لا بدّ أن يكون روحيا تعاطفيا ينطلق من ذواتنا، وأن إمكانية ذلك موجودة في كل فرد، وهذه المشاركة الوجدانية هي التي توصلنا إلى التطابق، وفي قراءتنا للأعمال الأدبية يتطابق عقلنا مع عقل الكاتب باعتباره مصدر الإنسان الشامل ومحرّك النفوس الأخرى، وعندما نقرأ "هومير" مثلا نصل إلى حدّ التطابق مع شخصية من شخصياته، وحسب انقلاب الأحداث قد ننحاز إلى أشيل أو هكتور، ويضيف نبهاني أن: (هومير أصبح صديقا أقرب إليّ روحيا، أعجبت

ببساطته، بتصويره لانقلابات الحياة البطولية...هومير الذي جعلني أعيش مرة أخرى العصر القديم، بعد أن فصلني عن عالمي، وأدخلني في عالمه، اكتشفت في هومير ذاك الإنسان الذي يفصلنا عن ذواتنا وخصوصياتنا، ويربطنا ثانية بحياة الإنسانية في دراما اجتماعية لا تتوقف. هومير أفرز الإنسان من أبطاله الذين أصبحوا عاديين بالنسبة لنا...عالم هومير مليء بالأبطال، عالم مضيء فيه من الدفء الإنساني...هومير قريب إلينا بقوة التعبير بثّ فينا حماسا لا ينقطع) (Nabhani, K., 1989, p. 14).

وداخل هذا التطابق نكون في حالة قابلية كاملة للانفعال، ونصل كقرّاء إلى احتلال مكان الكاتب أو شخصياته ونتورّط معهم وننبعث من حياتهم ونندمج في عالمهم، ويحدث أن ننسى أنفسنا ونتأمّر بأوامرهم، ونتأثر ببطولاتهم وفي عمق القارئ يعاد إدماج الإعجاب الذي شعر به في ذاته، والكتاب أنفسهم لا يستهدفون إلاّ إعادة تأهيل أو ترميم الإنسان بهكذا طريقة.

وعند قراءتنا للتاريخ يمكن أن نفضّل بعض القادة والعظماء الذين ينبثق منهم الإنسان، فإنسانيتهم في شكلها الخام والطاقوي الحيوي هي التي جعلتهم لامعين، وعوّضوا بطريقة ما الجانب الشرس فيهم بالجانب الإنساني، فالقائد حنبعل كان إنسانيا عندما جسّد إنسانية ما في حالتها الواقعية، والإسكندر الأكبر لم يكن فقط ذلك البطل العنيف ولكنه كان الحريص على الفلسفة والفلاسفة، ونابليون ليس مجرد محارب خلّف وراءه مدافن لعظام الموتى، ولكنه كان مشيّدا للقانون المدني، وحامي العلم، كما نشعر بحميمية لا حدود لها ونحن نقرا مذكراته(Nabhani, K., 1989, p. 25).

6. المجتمع الروحي:

رأينا فيما سبق أن نبهاني كريبع تجاوز الزمان والمكان والأديان والأعراق، بمعنى أنه كان يبحث عن مفهوم أشمل تستظل به الإنسانية بأسرها، وهو يعامل الأديان على قدم المساواة، ويعتبرها –خاصة السماوية منها- لعبت دورا كبيرا في التاريخ لأنها قدّمت إجابات

ميتافيزيقية هدّأت من روع الإنسانية، كما أنها تعايشت مع الحضارات، وإلى اليوم لا زالت هذه الأديان غذاء لأرواح معتنقيها، وما دام المخطّط الديني هو مخطّط العقل الصافي، فإن الله عزّ وجلّ دخل في حوار مع عباده عن طريق أنبياءه ورسله، كذلك يجب أن يفعل الناس(Nabhani, K., 2001, p. 99).

وإذا كان الناس يتعرفون على تماثلاتهم الجسدية أو الغريزية، فلا بد أن يتعرّفوا على تماثلهم الروحي لأن من طبيعتهم الشعور بالتضامن إزاء القلق في حياتهم لذلك فهم يجتمعون في جماعات مما يوسّع إطار تفكيرهم وسلوكهم ويولّد الحوار بينهم، ويوضّع (من الموضوعية) بطريقة ما حساسيتهم الذاتية المركز ويوجّهها نحو الغير، والحياة في تجمعات يجعلهم يستشعرون شمولية الإنسان، ثم هنالك اللغة التي يتواصل بها المجتمع تسمح بتحديد الفكر وصرفه في الزمان والمكان مما يخفّف عن الذاكرة الفردية ليكون نوعا من الذاكرة الإنسانية.

ويعترف نبهاني بأن مفهوم الإنسان الشامل الذي يدعو إليه لم يكن نابعا من لغته ودينه وبيئته هو، وإنما يرجع إلى قراءاته لعدد من الكتاب والأدباء الكلاسيكيين الغرب وهذا ما أكسبه الوعي بذاته وبالآخرين، لأن هؤلاء الكتاب أثّروا فيه إلى درجة الاعتياد عليهم، لهذا فهو يشعر بأن هناك مجتمعا روحيا واحدا(Nabhani, K., 1989, p. 33).

هذا المجتمع الروحي صنعه هؤلاء الأدباء بنبرتهم التي تدوي في نفوس القرّاء، ببساطة تعبيرهم وشمولية حكمتهم. إنّ الأدباء العظام هم القادرون على إشاعة حماسهم في الآخرين بواسطة لغتهم المثالية.

قراءات ختامية:

إن انطلاق نبهاني كربيع من مفهوم الإنسان الشامل، هو البداية من مفهوم واضح، وهو في الحقيقة اختصار للطريق وتجنّب للضياع في الإجراءات والمعايير المتعدّدة التي قد تختلف عليها الشعوب للانطلاق في الحوار، والاستمرار فيه، والوصول به إلى الغايات

البعيدة، وعلى كل المستويات هذه المعايير متعدّدة منها: التفهم، الصدق، الإرادة، الثقة، التحرّر من الأحكام المسبقة والنظرة الدونية، والابتعاد عن التعميم والتناقض والرفض، وما دام الحوار خاصية إنسانية، كذلك كان مفهوم الإنسان الشامل بوتقة يلتقي فيها الأفراد والأمم والشعوب بثقافاتها المتعدّدة، وهو الجوهر الذي لا يزول لأن الحوار من أجل المصالح المادية الآنية قد يتوقف وينقطع بانقطاع هذه المصالح.

وإذا كان الأدب مكون أساسي من مكونات أية حضارة ومرآة لها في وقت واحد، فهو يعبّر عن الأوضاع والخصوصيات والقيم الحضارية التي تنهض عليها حضارة الأمة، ولذا من البداهة أن تظهر فيه التناقضات والحالات الصحية القائمة بين الأفراد والأمم، ولهذا السبب يمكن أن تشكّل الآداب أحد المداخل الممكنة للحوار سواء على صعيد ثقافي كما في الحوار بين الحضارات، أو على صعيد ديني كما في الحوار بين الإسلام والمسيحية أو بين اللاهوتيين (رجال الدين) والعلمانيين، ثم على صعيد سياسي

مدني كما في المناقشات الديمقراطية بين الكتل البرلمانية أو الأحزاب السياسية أو الهيئات النقابية والمنتديات الثقافية، وأخيرا على صعيد وجودي، ذلك أن الإنسان بوصفه ناطقا إنما يمارس علاقته بوجوده كفعل تواصلي عبر المحادثة مع الآخر. وبهذا المعنى يشكّل الحوار بعدا من أبعاد الكينونة.

ولما كان نبهاني يعتقد بأن الإنسان الشامل يتجلّى في الفنّ والأدب بطريقة موضوعية، ولا يتجلى في الفلسفة مثلا، فذلك يعود برأيه إلى أن الأدب يعرّفنا بمواضع التلاقي والاختلاف في التقاليد الأدبية لدى الشعوب، مما يعرّف كل شعب بما لدى الشعوب الأخرى من تقاليد، أما نقاط التلاقي أو التقاطع بين تلك التقاليد فهي تبين للناس أن القواسم الأدبية المشتركة بين الشعوب حتى النائية منها أكبر بكثير مما يتوقعون، وبالمقابل فإن جوانب الاختلاف التي تنطوي عليها تلك التقاليد الأدبية تبين للناس أن لكل شعب هويته أو خصوصيته التي تميزه عن الشعوب الأخرى، وهي جزء من هويته أو خصوصيته

الحضارية، وبفضل تعرّفهم إلى تلك الخصوصية يتعلّم الناس احترامها واحترام الشعوب والحضارات التي أبدعتها ويكون بذلك القارئ قد حقّق ركنا هاما من أركان الحوار.

وفي هذا المجال قد تطرح مسألة الأصالة بمعنى الاكتفاء بما عند الذات من إمكانيات ثقافية، ولكن المعنى الحقيقي للأصالة ليست هي بقاء الذات في حدودها، وليست هي رفض التجاوب مع العالم الخارجي لكي تبقى كما هي دون تغيير، ولكن الأصالة الحق هي القدرة على الإفادة من مظان الإفادة الخارجية عن نطاق الذات حتى يتسنى الارتقاء بها عن طريق تنمية إمكانياتها، ولا يستطيع أي إنسان أن يصقل نفسه ولا أن يبلغ أقصى ما يتيسّر له من الكمال إلاّ بتطعيم ذهنه بأفكار ومشاعر وتجارب الآخرين والأخذ بالملائم منها. وفي هذا الصدد كتب الشاعر الفرنسي "بودلير" (1821-1887) إلى صديق له يقول: (أتعرف لماذا ترجمت في صبر ودأب ما كتبه إدجار آلان بو (1804-1849) [الناقد والشاعر الأمريكي] لأنه كان يشبهني، ففي أول مرة تصفحت فيها كتابا من كتبه رأيت فيه ما كان مثار فتنتي وروعتي، ولم أعثر فيه على الموضوعات التي كنت أحلم بها فحسب، ولكني وجدت فيه، كذلك الجمل التي كانت تراود أفكاري وكان له السبق إلى كتابتها قبلي بعشرين عاما.)

ومن هذه المنظور –منظور التجاوب في الميول والاتجاهات الفنية والفكرية- تنمحي الحدود المعوقة من اللغة والجنس، يشعر الكاتب والقارئ الذي يحاكي الآخرين أو يتأثر بهم أنه بصدد نماذج إنسانية تشبه مواطنيه لكثرة ما بينه وبينهم من تشابه، بل ليشعر أنهم مشاركوه في وطنه الفكري المثالي.

وهكذا فمسألة الأصالة أو الهوية كعلاقة بين الذات والغير هي أعقد مما نحسب، إنها مسالة وجودية في النهاية، ذلك لأن الآخر هو ما لا قوام لنا إلاّ به، لذا فالعلاقة به ضرورية بقدر ما هي ملتبسة، هي ضرورية لأنه ما دام المرء يرمز ويتكلم أو يفكّر ويعمل، إنما يحتاج إلى آخر بعينه، يتجه إليه، أو يقيم معه علاقات تواصل وتفاهم، وقد تكون العلاقة في حدّها الأقصى علاقة تلاحم. والآخر الذي نتحاور معه يدفعنا إلى التحرّر من ديكتاتورية الحقيقة وقوقعة الخصوصية لأننا في الحقيقة لا نتحاور مع الآخر لأنه يشبهنا، أو لكي نصير

مثله، ولا لكي نتطابق معه في الفكر والموقف، ولكن نتحاور لكي نتعلّم ونتبادل ونغتني به، ولكي نتقن فنّ العيش معه وعن طريقه.

والإدراك المتزايد لأخوة البشر جعل من صيغة الأنا والآخر يتغير على صعيد حياتنا الثقافية والاجتماعية، ويجعلنا نقفز من الجانب الأدبي إلى الجانب السياسي والاقتصادي، ذاك الإدراك غيّر

التسمية وقسّم العالم إلى "نحن وهم" وهي قسمة جديدة لا تقوم على الحدود الجغرافية والروابط الوطنية أو الخصائص الثقافية، وإنما قسمة تقوم على "نحن" وهي الشعوب التي تريد أن تحيا في سلام وتنبذ الحرب و"هم" أصحاب المصالح الرأسمالية الذين يشعلون الحروب لبيع منتجات الأسلحة التي تنتجها مصانعهم، أو الاستيلاء على موارد الطاقة اللازمة لصناعتهم، أو السيطرة على الأسواق لحسابهم، هذه القسمة الجديدة أخذت تتشكّل وتتصاعد وتعبّر عن نفسها بأشكال مختلفة، فالمظاهرات ضدّ العولمة، واجتماعات منظمة التجارة العالمية، ومنتدى دافوس، وغيرها من أشكال عولمة السيطرة الرأسمالية هي الدليل الواضح على هذه القسمة الجديدة قد أخذت تتشكّل بشكل متسارع، إذ أن هذه المظاهرات المعادية للعولمة (بمعنى سيطرة القوى الرأسمالية على العالم) قد اندلعت في معظم أجزاء العالم، وحتى داخل أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية نفسها تعبيرا عن رفض "نحن" الناس العاديين في كل أقطار العالم لسيطرة "هم" الذين يمثلون الاحتكارات الرأسمالية.

ونعود إلى الأدب مرة أخرى ولنسائل نهاني كريبع: هل بقي شيء للأدب بفنونه يمكن أن نمارس من خلاله حوارا في ظل تطور وسائل الإعلام والاتصال وسيطرة ثقافة الصورة؟

في الجواب على هذا السؤال يمكن أن نفرّق بين الثقافة في ذاتها وتحديدا الأدب، وبين الحضور الإعلامي للثقافة والإبداع، فنحن بإزاء ظاهرتين متماثلتين تماما، فهناك أدباء ومذيعون وأصحاب أفكار على درجة من الأهمية منسحبون من الواجهات الإعلامية والواجهات الصحفية وبالتالي هم بعيدون قليلا عن التأثير ولكن أقرب من الثقافة في

جوهرها ومحركاتها القوية والتي ستكون مستمرة في المستقبل، بينما نجد ظواهر صحفية وإعلامية سرعان ما تندثر وتزول لأنها موجودة بقوة الدفع الصحفي، وبقوة الإمكانات المتاحة لها على حساب غياب الغائبين بما يملكون من قيمة.

وحتى وسائل الإعلام نفسها قد تنبهت إلى ما يمكن أن يلعبه الأدب من دور في الحوار بين الشعوب وراحت تنقل إلينا على المباشر الملتقيات، الندوات والحوارات الأدبية، وكان بين تلك الملتقيات التي اهتمت به وسائل الإعلام "ملتقى الشعر من أجل التعايش السلمي" الذي استضافته دولة الإمارات العربية المتحدة في الفترة من 16 إلى 18 أكتوبر 2011م، وكان القصد منه كما عبر عن ذلك منظموه والمتدخلين فيه هو الارتقاء بالحوار عن طريق الشعر إلى ملامسة الهمّ الإنساني، وأن يسند الشعر الحوار ليصبح ثقافة يتبناها الجميع، فالشعر والحوار في أرفع تجلياتهما هما من نبع واحد، فالشعر العظيم هو انطلاقة للروح من قيودها ومن تضاريس الواقع الخانقة إلى آفاق لا نهائية حيث يمتزج العلم بواقع جديد أكثر إشراقا وشفافية، كما ينطلق منهج الحوار بالناس من الخنادق التي حفرت لهم، والكهوف التي حُشِروا فيهاإلى الفضاء الإنساني العام حيث السلام والأمن والاحترام للجميع، كما طمح ذاك الملتقى -الذي ضمّ نخبة من المثقفين والسياسيين والإعلاميين والأدباء وفدوا من مختلف القوميات والبلدان ويمثلون الأديان والمذاهب على تعدّدها- إلى التأكيد على وحدة الإنسان في وجه كل من يعملون على تقسيمه طوليا وعرضيا، والأمل في بقاء الكلمة في وجدان الشاعر والإعلامي طاهرة مقدّسة تجنح إلى تأكيد التآلف والتفاهم وقبول الآخر، وتسعى إلى نزع الألغام من نفوس البشر (حرب، 2002، ص 167. 171. 178/ غنيمي، 1998، ص 95. 97/ قاسم، 2004، ص 16 -17/ الجراح وسعدية، 2002، ص 68- 69/ مصطفى، 2012، ص 60 – 61).

المراجع:

- الجراح، نوري ومفرح، سعدية. (2002). لا أعتقد بخلاص العالم من دون الشعر، مجلة العربي، العدد 525..

- إميل ، بديع يعقوب وميشال، عاصي. (1987). المعجم المفصّل في اللغة والأدب، المجلد الأول، ط 1، بيروت: دار العلم للملايين.

- حرب، علي. 2002). العالم ومأزقه - منطق الصدام ولغة التداول، ط 1، بيروت، المركز الثقافي العربي.

- غنيمي، محمد هلال. (1998). الأدب المقارن، ط 3، القاهرة: دار نهضة مصر.

- قاسم، عبده قاسم، الأنا والآخر...أو "نحن" و "هم"، مجلة العربي، العدد 583، فبراير 2004م.

- مجمع اللغة العربية. (1980). المعجم الوجيز، ط 1، جمهورية مصر العربية،.

- مصطفى عبد الله، ملتقى الشعر من أجل التعايش السلمي، مجلة العربي، العدد 639، فبراير 2012م.

- Michel, Blay. (2005). Larousse-Grand Dictionnaire De La Philosophie, paris : CNRS éditions,.

- Nabhani Koribaa.(1989). Humain Universel, Alger : entreprise nationale du livre.

- Nabhani Koribaa.(2001). L'homme en Islam- historicité et ouverture, France : éditions ZYRIAB.